الى قمة جبل سينا ، ظن انه وصل الى المكان الذي يصل فيه الى الله · ولكن السهروردي يدرك ان فوق جبل سينا جبالا كثيرة ، ووراء هذا الاب الروحي الذي خاطبه آباء روحيون كثر ، ثم ان الذي كلم السهروردي على جبل سينا افهمه انه يجب ان يعود الى الارض ثم بشره بأنه سيصل الى الله بعد ذلك » (١٤) ·

اذا كان هناك ثمة وجه للصلة ، فهي الرغبة الانسانية منذ وعيها الطفولي لاكتشاف ذاتها واكتشاف العالم من حولها · واذا كان كاتبنا القى ببطله في احضان الطبيعة لامتحانه الانساني ، فانه يهدف الى صياغة نوع من المقابلة بين صفاء الوجود ، والتشوه في صورة تشكله ·

تعرية شديدة اللهجة للواقع الانساني عبر مقابلته بصورته الفطرية النقية ، لصياغة لوحة التضاد بين النقاء الاصلي ، والتزييف الطارىء ، مقابلة تضاد لا تتفق مع ديموقراطية روسو التي تعلن : « ولد الانسان حرا » او المفهوم الذي طرحه ـ عمر بن الخطاب ـ « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرارا » · فروسو لم يكن يأخذ في الحسبان « هذا الواقع البسيط وهو ان الطفل الذي يطلق اولى صرخاته عند ولادته في كوخ فلاح لم يتمكن من ان يكون حرا ، نظرا لانه لا يرث فقط ملامح ابويه الخارجية بل يرث ايضا وضعهما المالي ، وان الطفل المولود في قصر احد النبلاء ، او في دار تاجر محترم هو اكثر حرية بكثير من الطفل الاول » (١٥) ·

فكاتبنا لا يدافع هنا عن الحرية بصفتها حقا طبيعيا للانسان الطبيعي ، وانما يطلق الفعالية الانسانية الحرة المكبلة بشبكة القمع الطبيعي والاجتماعي · فزكريا المرسلي ورث الاضطهاد والتعاسة منذ نعومة اظفاره « في صغري ضربوني كثيرا ، والذي جعل العصا معلمي الوحيد · كان يضربني باستحقاق ، ولكنه كان يضرب نفسه · والدتي نصحتني ، حبستني ، فعلت كل ما تستطيع لاصير بشرا ، وخابت مساعيها · تركتني وشأني ، قالت : انت ازعر لا خير فيك ، لم افهم شيئا » (١٦) · وهكذا فان حنا يرصد شخصيته وتطورها وفق ارتباطهابالواقع ، معيدا انتكاساتها واحباطاتها الى سببية تكمن في جوهر العلاقة التي تحكم الفرد بالمجتمع ·

السديمية التي انتهى اليها ـ المرسلي ـ تتناقض مع الوهج الحي المستمد من نبض الق الكون ، فما هي الا نتاج الصدأ الطارىء على الجوهر الانساني النابض · ولذا فان كاتبنا ينقب عن كل ابعاد الروابط الاجتماعية التي تحكم الشخصية ، وتبعث العطب فيها ، بداية من نقطة الصفر ، من عتبة الطفولة ، فمصادرة الاحساس بالغبطة الانسانية تتجذر في اعمق خلايا النسيج الداخلي للواقع الاجتماعي والتاريخي الذي تترعرع في بنيانه هذه الشخصية · ـ ابن طفيل ـ من خلال بحث (حي بن يقظان) عن سر الوجود ، يضغط الوجود المادي ، ليتبدى عن هيولاه ، عن الكمال المطلق ، المتجسد بـ (الله) · أما ـ حنا ـ فمن خلال كشف (المرسلي) لسر وجوده ، فانه يضغط الوجود ، دون ان تكون الذات بديلا له ، ليتبدى عن هيولاه ، عن قيمته العظمى ، المتجسدة بـ « الانسان » ، يبحث بين فوضى انقاض العالم عن انسان الفعل وحده الذي يتملك امكانية تأييد التاريخ ، فاضحا قمعية العلاقات الاجتماعية التي تشيء الفعالية البشرية، وتضغطها ، فالطبيعة ليست بديلا للعلاقات البشرية ، وانما تجسيدا للصفائية الكونية المنبعثة في الذات الحرة فينا ، والمضغوطة بفعل علاقات غريبة عن جوهر الطبيعة والحياة ، فالمرسلي في وحدته مع الطبيعة ، لم تكن الطبيعة بالنسبة له بديلا للاخر